عبء ثلاثة آلاف عام:

قراءات في «التاريخ اليهودي والديانة اليهودية»

د. وليد أحمد السيد *

shahak
jewish history jewish religion
The Weight of Three Thousand Years
Forewords by Vidal, Said, Mezvinsky, Pappe
GET POLITICAL

■ كتاب(Jewish History Jewish Religion)) من منشورات مطبعة (Pluto) بلندن يسجل بقلم الكاتب والمفكر الإسرائيلي شاهاك أبرز ممارسات الدولة العبرية كدولة عنصرية تستمد أبرز أيديولوجيات قوانينها المدنية من تأويلات الحاخامات التلمودية في تمييز عنصري فاضح مع «غير اليهود». الطبعة الجديدة للعام 2008 قدم لها مجموعة من أبرز المفكرين الفلسطينيين واليهود المنصفين على حد سواء، ومنهم إدوارد سعيد الذي وصف شاهاك بأنه واحد من المفكرين المتميزين في الشرق الأوسط المعاصر. يقول عنه إدوارد سعيد في تقديمه لطبعة 1997 من الكتاب: «هو رجل شجاع ويجب تكريمه لخدماته للإنسانية». أما (Ilan Pappe) ، (إيلان بابي) الأستاذ بجامعة اكستر البريطانية، فيصور في تقديمه للكتاب معالم العوامل التي دفعت شاهاك لمناصرة الحق الفلسطيني المسلوب على أيدي الصهاينة ودولة إسرائيل وأبرزها ما تولد لديه مما يسميه (رحلة إلى الماضي بأثر رجعي) حيث كان شاهاك هو نفسه ممن شاهد بعينيه في طفولته مذابح النازية لليهود واضطهادهم في مخيمات (Bergen Belzen) في بولندا، ليعاصر نموذجا أبشع من ممارسات اليهود الناجين من التعذيب النازي ضد شعب أعزل آخر. وتمثل إعادة طباعة الكتاب بمثابة تقدير للكاتب الإنسان الذي ما فتئ يدافع عن الحق ويناهض ما يراه باطلا حتى لو كان ضد الدولة التي كان مواطنا فيها. فالكتاب لاقى ترحيبا من المنصفين في إسرائيل والدول العربية والعالم، حيث ركز على تعنت دولة إسرائيل وتصلبها في قهر واضطهاد الفلسطينيين.

وقد ولد شاهاك في بولندا ونجا من الاضطهاد النازي فهرب مع والدته إلى فلسطين عام 1945. وكغيره من اليهود الذين قدموا لفلسطين انخرط في الجندية وخدم في الاحتياط لسنوات عديدة استجابة للقوانين الإسرائيلية. وما شاهده من ممارسات لا أخلاقية وقمعية وهمجية على أيدي الصهيونية والدولة العبرية اسرائيل تجاه الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وغزة، كل ذلك دفعه لمعاودة التفكير ومساءلة الأسس التي قامت عليها دولة اسرائيل وتاريخها وأيديولوجيتها وخطابها السياسي، والتي سرعان ما اكتشف أنها غير معلومة للكثير من غير الإسرائيليين وبخاصة في الخارج ومنهم اليهود في العالم والذين يعتقدون أن اسرائيل تمثل دولة ديمقراطية ونموذج الدولة الرائعة الحديثة التي تستحق كل الدعم والتأييد الكامل. وهذا بالتالي دفعه للانضمام وتأسيس رابطة اسرائيلية لحقوق الإنسان حيث كان رئيسا لها. ما يميز إسرائيل شاهاك أنه لم يكن يبالي إن قال الحقيقة فيما إن كان ذلك ضد مصلحة إسرائيل أو اليهود، وكان ضد التمييز العنصري في كتاباته وخطاباته العامة مما جعله وبسرعة غير مرغوب به في دولة إسرائيل، لدرجة أنه تم الإعلان عن موته قبل وفاته الفعلية في العام 2007 بخمسة عشر عاما. فقد أوردت الواشنطن بوست نبأ وفاته من خلال تقرير صحافي، مما دفع شاهاك للدخول على مقر الجريدة بلحمه وشحمه لنفي مزاعمها وإثبات أنه ما يزال على قيد الحياة، برغم أن الجريدة بعدها لم تكذب الخبر الأول أو تصححه! مما أدى لاعتقاد الكثيرين بوفاته قبل وقت طويل وهي دلالة على المدى الذي كانت كتاباته و«حياته» تزعج الإسرائيليين. وهو كثيرا ما استعمل مصطلح (اليهودية النازية) لوصف ممارسات اسرائيل القمعية تجاه الفلسطينيين. ولم يكن من عادته أن يكتب عن أمر لم يكتشفه بنفسه أو لم تره عيناه أو يحس به مباشرة. وتميزت كتاباته عن غيره من المنصفين من اليهود أنه عمد إلى الربط بين الصهيونية واليهودية وممارسات إسرائيل الهمجية تجاه «غير اليهود»، واستخلاص النتائج في كتاباته ومؤلفاته. ولم يجد مبررا لمن نجا من أهوال الممارسات النازية تجاه اليهود كي ينكل هؤلاء الناجون من اليهود بشعب آخر هو الشعب الفلسطيني. ولم يكن عمله كأستاذ محاضر في الكيمياء العضوية في الجامعة العبرية لخمسة وعشرين عاما أو بحثه العلمي الدؤوب يمنعه من ممارسة نشاطاته كحقوقي ومناصر لحرية الإنسان أو بحثه في التاريخ اليهودي. وقد أصبح عضوا في جمعية الحقوق الإسرائيلية الإنسانية والمدنية بعد حرب 1967 وتم انتخابه رئيسا لها عام 1970 حيث قاد الجمعية ـ التي كان أعضاؤها من الإسرائيليين والفلسطينيين ـ ضد ممارسات اسرائيل القمعية الاحتلالية ضد الفلسطينيين. وفي فترة السبعينيات قرر شاهاك أن يسمع صوته للعالم وبخاصة في الولايات المتحدة، فشهدت السبعينيات والثمانينيات جولاته المتعددة لإلقاء المحاضرات وتنظيم المؤتمرات خارج إسرائيل حيث التقى بالمفكر الفلسطيني الراحل إدوار سعيد الذي كتب عنه تقديرا لمؤلفاته وجهوده الإنسانية كناشط حقوقي.

ما أثار حفيظة شاهاك وما دفعه لبحث ومساءلة الديانة اليهودية، بحسب اعتقاد «إيلان بابي»، هو تجربة شخصية ومشاهداته الواقعية في بداية الخمسينيات بعد تأسيس دولة إسرائيل، والتي رآها بعد بحثه في أصول النصوص التوراتية والديانة اليهودية تنطلق من عقيدة عنصرية في النظر لغير اليهود مما عزز مناهضته للدولة العبرية والأسس التي قامت عليها. فشاهاك، كما يقول (Ilan Pappe)، شاهد التفسيرات اليومية للعقيدة التوراتية اليهودية التي تترجم إلى نظرة اليهود ليس فقط للفلسطينيين، وإنما «لغير اليهود»، بحيث غدت الممارسات اليومية تتجاوز كون الفلسطينيين محل اضطهاد سياسي قمعي لماكينة الحرب العسكرية وإنما هم ضحايا أيديولوجيا عقدية عنصرية تنبع من التفسيرات الثيولوجية للديانة اليهودية من قبل كهنة اليهود والتي تستقي منها الدولة العبرية منابع أيديولوجيتها العنصرية «لغير اليهود».

يقول شاهاك في كتابه: «على الرغم من أن هذا الكتاب موجه للناس خارج اسرائيل وهو لذلك مكتوب باللغة الإنكليزية، إلا أنه يمثل خلاصة مبادئي السياسية كيهودي إسرائيلي». ويشير إلى بداية نشاطاته السياسية كحقوقي وناشط في العام 1965 في احتجاج عام تم تنظيمه أثار ضجة كبرى وفضيحة انتصارا لحقوق الإنسان في ذلك الوقت. ويسجل شاهاك أنه كان شاهدا شخصيا على قضية دينية يهودية مارسها يهودي يوم السبت حيث رفض أن يتم استعمال تليفونه لطلب الإسعاف «لغير يهودي» سقط مغشيا عليه في مدينة القدس. وبدلا من الكتابة عن هذه الفضيحة في الصحافة، آثر شاهاك بحث الأمر مع المرجعية العليا للحاخامات والقضاء في القدس، والتي تتكون من مجموعة منتخبة من الحاخامات اليهود. يقول شاهاك في كتابه:» طلبت اجتماعا وسألت مجلس الحاخامات اليهود عما إذا كان هذا التصرف من ذاك اليهودي الذي رفض «إعارة» تليفونه لطلب الإسعاف – تصوروا ليس هو من يطلب الإسعاف – لغير اليهودي يوم السبت صحيحا، وفيما إذا كان هذا التصرف منسجما مع تعاليم الدين اليهودي؟ كانت إجابتهم أن ذلك اليهودي قد تصرف بعين الصواب، بل وبما يتماشى مع يهوديته. وفوق ذلك فقد دعموا أقوالهم بنصوص من التلمود مكتوبة هذا القرن! فلم يكن من شاهاك إلا أن كتب في صحيفة «هآرتس» اليومية عن هذه الفضيحة الأخلاقية والتي شكلت قضية إعلامية هائلة آنئذ. لكن نتيجة ذلك لم تكن إيجابية، فلم يدن أحد هذه الممارسة اليهودية المنبثقة من عقيدة تلمودية، بل جاءت المداخلات أسوأ من الحادثة نفسها وأضاف المجتهدون الحاخامات أنه يمكن لليهودي أن يدنس حرمة يوم السبت «فقط» في حال تعرض حياته هو نفسه للخطر وليس حياة غير اليهودي!

أما أبرز المفاهيم الأساسية التي يبحثها الكتاب فهو تعريف من هو اليهودي؟ فبحسب القانون الإسرائيلي يعتبر الفرد «يهوديا» في حالات: الأولى أن تكون أمه أو أصولها من جداتها معتنقات للديانة اليهودية، والثانية أن يتحول الشخص لليهودية بما ترضى عنه السلطات الإسرائيلية المختصة، والثالثة أن لا يكون قد تحول عن الديانة اليهودية سابقا حيث لا يكون يهوديا بنظر السلطات الإسرائيلية. أما الحالة الأولى فهي تجسيد لتعريف «اليهودي» بحسب التلمود والأصولية اليهودية. فالتلمود والتأويلات الحاخامية ما بعد التلمود تعترف بمن أصبح يهوديا باعتناقه لها ـ كذلك شراء عبد غير يهودي من قبل يهودي واعتناقه اليهودية بعدها ـ بشرط أن يتم ذلك بإشراف الحاخامات وبالطرق الشرعية «المعترف بها»! وهذه («الطرق المعترف بها»!) تتضمن، للإناث، طقوسا تتمثل بعملية «تفحص» من قبل ثلاثة حاخامات أثناء تغطيس الأنثى في «حمام التطهير» وهي عارية!

وبالرغم من هذا التعريف «الديني» لمن هو يهودي، إلا أن دولة إسرائيل تمارس رسميا التمييز العنصري والديني لمصلحة «اليهودي» عن «غير اليهودي» في مجالات مختلفة في الحياة العملية، منها ثلاثة يعتبرها شاهاك في كتابه الأكثر أهمية وهي: حقوق الإقامة، حقوق العمل، وحق المساواة أمام القانون. أما الأول وهو (التمييز العنصري والديني في مجال حق الإقامة) فيستند إلى حقيقة أن 92 بالمئة من الأراضي في دولة إسرائيل تمتلكها الدولة وتديرها هيئة تعرف «بهيئة أرض إسرائيل» (Israel Land Authority) ضمن قوانين تصدرها «الميزانية القومية اليهودية» (Jewish National Fund) وهي هيئة تابعة مباشرة «للمنظمة الصهيونية العالمية» (World Zionist Organization). وبحسب قوانين «الميزانية القومية اليهودية» فإنه يمنع لمن كان غير يهودي أن يقيم في أي مكان في دولة إسرائيل، أو يتداول التجارة أو يزاول أية مهنة، أو حتى أن يعمل فيها، وذلك فقط لأنه «ليس يهوديا» ـ أي أنه قانون تمييز عرقي ديني محض! وفي الوقت ذاته يسمح لليهودي بممارسة كل ما ذكر. ويضيف شاهاك معقبا على هذا القانون العنصري المجحف، أن هذا القانون لو طبق في أية دولة في العالم ضد اليهود لتعالت صيحاتهم واحتجاجاتهم بأن هذه الدولة «معادية للسامية» ولحقوق الإنسان! أما حين يتعلق الأمر باليهود فلهم الحق في ممارسة ما يشاؤون «كأيديولوجية يهودية» ضد غيرهم من الشعوب «غير اليهودية»، والتي يعتبرونها أدنى مرتبة منهم إذ هم شعب الله المصطفى المختار الذين لهم اليد الطولى في عمل ما يشاؤون، وهم معفون من أية ملامة أو ذنب ـ وبخاصة في أرض استولوا عليها ومارسوا عمليات التطهير العرقي لتفريغ الأرض من سكانها الأصليين!!!

أما الثاني وهو (قانون تحريم وتجريم العمل لغير اليهودي في «أرض إسرائيل») فموجود ومطبق. وبين الحين والحين تعمل دولة إسرائيل على تفعيل وتطبيق مثل هذه القوانين النابعة من الأيديولوجية اليهودية. فمثلا تطبق وزارة الزراعة الإسرائيلية قانون منع حصاد ثمار البساتين التي تعود ملكيتها لليهود في أرض إسرائيل، والتي تسميها « الأراضي القومية»، من قبل العمال العرب، وحتى أولئك العرب الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية! كما تمنع إسرائيل وبشكل قاطع اليهود المقيمين على ما يسمى «الأراضي القومية» لدولة إسرائيل من تأجير ولو جزء بسيط جدا من أرضهم وبساتينهم للعرب، ولو لفترة زمنية بسيطة جدا جدا! ومن يخالف تتم ملاحقته قضائيا وتوقيع غرامات مالية باهظة جدا عليه من قبل السلطات الإسرائيلية! وفي المقابل ليس هناك تقييد في تأجير الأراضي أو البساتين من اليهود لليهود. ويقول شاهاك في هذا الموضوع مستهجنا:» وهذا يعني أنني كيهودي يحق لي تأجير بستاني ليهودي آخر فقط ولا يسمح لي بالتعامل مع العربي أو أية جنسية أخرى في زراعة وقطف ثمار بستاني داخل أرض إسرائيل القومية»! ـ ومما يذكر في هذا الإطار أن أولمرت وقبل أشهر من كتابة هذه السطور أهدى بستانا مليئا بالثمار للرئيس الفرنسي ساركوزي داخل مدينة القدس!

أما المظهر الثالث من العنصرية وهو (المساواة امام القانون لغير اليهود)، فبحسب النصوص الدينية للتلمود والتي تعتمدها دولة إسرائيل عمليا فلا يتمتع «غير اليهود» بالمساواة أمام القانون، فهم «ليسوا سواسية» مطلقا. ولا تشير القوانين صراحة «لغير اليهود» تجنبا لظهور فساد هذه القوانين على السطح للعالم، لكنها تشير في موادها الأساسية «لليهود» فقط متجاهلة الآخرين ضمنيا. فمثلا في قانون يسمى قانون «حق العودة» أو (Law of Return) يحق لليهود المعترف بهم ضمن قوانين الحاخامات واليهودية المشار إليها أعلاه العودة التلقائية لدولة إسرائيل والإقامة فيها. وبمجرد دخولهم إسرائيل يحصلون على شهادة هجرة والتي تزودهم فور وصولهم بالجنسية الإسرائيلية تلقائيا بمجرد عودتهم لما يسمى «بأرض الوطن الموعود»، وبمجموعة من الامتيازات المالية التي تتراوح قيمتها بناء على الدولة الأوروبية التي قدموا منها والتي تسمى «منحة الاستيعاب» وتصل إلى أكثر من 20 ألف دولار أمريكي للعائلة، وكذلك يحصلون على ميزات لتعليم أولادهم العالي وقرض سخي لشراء شقة بتسهيلات خيالية. وبحسب هذا القانون يحق لكل اليهود العائدين لإسرائيل التصويت في الانتخابات وترشيح أنفسهم للكنيست ـ حتى لو لم يفقهوا كلمة واحدة من اللغة العبرية! وبمقابل هذه الامتيازات التلقائية لليهود يتم منع «غير اليهود» منها وبشكل منهجي رسمي صارم. ويتم تطبيق قانون التمييز العنصري بعدم المساواة أمام القانون الإسرائيلي من خلال بطاقة الهوية التي يكتب عليها الجنسية مثل «عربي» أو «يهودي» أو «درزي» مثلا، وليس «إسرائيلي». وحتى لو طالب أحدهم بأن يكتب على بطاقة هويته «يهودي ـ إسرائيلي» مثلا تصله رسالة من وزارة الداخلية تفيد بأن القانون يحظر استخدام كلمة «اسرائيلي» على البطاقة ـ ولا يعرف من أقر هذا القانون أو متى ـ يتساءل شاهاك!! جميع هذه التسهيلات لليهود والتضييقات أمام «غير اليهود» تهدف، بوضوح، لخلق «دولة يهودية» خالصة كما يعقب شاهاك.

هذه السياسة الصهيونية بخلق «دولة يهودية» تحوي معالم الخطر للدولة ذاتها كدولة عنصرية وتشكل خطرا رابضا صامتا لجيرانها. فصميم عقيدتها الصهيونية يحوي أطماعا توسعية تفضحها التعاليم الحاخامية، «فأرض الميعاد» المزعومة تشكل فلسطين المحتلة قلبها لكنها تتجاوز بكثير حدود دولة إسرائيل الحالية. وتشكل محورا للعديد من الحروب والصراعات الإقليمية التاريخية والمنتظرة باتجاه تحقيق هذه النبوءة التوراتية، مما يشمل استراتيجيات اسرائيل «الإمبريالية» بالمنطقة لاستعادة «مملكة سليمان وداود» بحدودها التوراتية. وهذه المملكة، مما يتداوله حاخامات اليهود اليوم، تشمل: من الجنوب جميع أرض سيناء وجزءاً من شمال مصرٍ وحتى مشارف القاهرة، ومن الشرقِ جميع الأردن وقسماً كبيراً من السعودية وجميع الكويت وجزءاً من العراق جنوب الفرات، ومن الشمال جميع لبنان وسورية وجزءاً كبيراً من تركيا (حتى بحيرة فان)، ومن الغرب قبرص. وهذه المملكة اليهودية التي ستتم اعادة بنائها يجري تداولها بشكل منهجي في الخرائط والكتب والنقاشات داخل إسرائيل وبين الأوساط الدينية لحاخاماتهم.

هذه القراءات السريعة والدلائل تشير لعمق الترصد اليهودي لما حولهم من شعوب ومقدرات وجغرافيا، فضلا عن طبيعتهم في النظر لمن حولهم وعدم التعايش معهم. هذا بالرغم من أن التاريخ الشرق أوسطي يشهد للشعوب الأخرى باستيعابهم ضمن الحضارات والديانات الأخرى كالإسلامية. ففي الإسلام تبرز فضائل الفاروق عمر بن الخطاب وعدالة الإسلام مع اليهودي الشيخ الذي أوصى له عمر بمبلغ يدفع من بيت مال المسلمين مشيرا لأن عدالة الإسلام تقضي برعايته شيخا بعد أن دفع الجزية شابا قادرا على العمل في خلافة الإسلام. ومن قبله عاش اليهود في الجزيرة العربية ولهم حقوق العمل والتعاملات التجارية، فالرسول (صلى الله عليه وسلم) كانت له هناك تعاملات مع اليهود بدليل أنه مات ودرعه مرهونة عند يهودي.

وبعد ذلك يطلع علينا اليوم ساسة إسرائيل، وبعض منافقي الغرب، بأن دولة اسرائيل انما هي «الديمقراطية» الوحيدة في الشرق الأوسط! فلتذهب ديمقراطيتهم هذه إلى الجحيم. فلئن كانت هذه الدولة تمثل نموذج الديمقراطية، والتي بمفهومها الواسع ينبغي أن تعني المساواة والعدالة والشورى والتساوي أمام القانون، وبخاصة في دول العالم الحديثة حيث التعددية الفكرية والثقافية والاجتماعية من مختلف الأعراق، فما هي الدكتاتورية إذن؟ تخيلوا لو أن بريطانيا مثلا طبقت قوانين تحظر على «غير المسيحيين» الإقامة والتملك والعمل والمساواة أمام القانون، ماذا ستفعل الجاليات اليهودية المقيمة فيها والمتنفذة اليوم في اقتصادها وسياستها وخيراتها؟ إن كانت هذه الدولة المارقة التي قامت على أشلاء مزارعين عزل تم تطهيرهم تطهيرا عرقيا من قراهم؛ هذه الدولة التي تقوم على «أيديولوجيات ومعتقدات دينية» تنظر «بدونية» لمن يعيش بين ظهراني اليهود على أنهم أعلى قليلا من مرتبة الحيوانات في حقوقهم وما تمنحهم، فأين هي الدكتاتورية إذن؟ بل لعل التاريخ القديم منه والحديث لم يشهد انتهاكا صارخا لأبسط حقوق الإنسان، حتى أمريكا العنصرية وتمييزها ضد السود لم تنزل لهذا الدرك من الانحطاط ثم تتماهى بعدها بأنها «الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط». فالديمقراطية تعني أكثر بكثير من مفهوم النفاق والازدواجية والتستر خلف صناديق الاقتراع! كل هذا يدل على «عقيدة الجيتو» اليهودية التي تتحوصل على ما سرقته لتنشئ حولها الأسوار العازلة والقوانين التي تكرس هذه الأيديولوجية الاستيطانية الصهيونية. وما هذه القراءات العاجلة في المعتقدات اليهودية التي تشكل دعائم استراتيجية لدولة إسرائيل تطبقها على أرض الواقع إلا قمة جبل الجليد من خبايا السياسات الإسرائيلية التي تنبثق من عقيدة التوسع والاحتلال مما يشكل صفعة للموهومين بسراب السلام الخادع، فبأي حديث بعده يؤمنون!

لندن في 29 كانون الثاني (يناير) 2009

---

* باحث وأكاديمي أردني فلسطيني ـ مؤسس مجموعة لونارد لدراسات بيت المقدس بلندن

تداعيات

رسالة مفتوحة إلى أ.ب يهوشوع

أحمد رفيق عوض *

■ قرأنا رسالتك المفتوحة إلى الصحافي الشجاع جدعون ليفي، وهالنا ما قرأناه حقاً، وفي حالة تجريدنا رسالتك من حساسيتك الأخلاقية الاستعلائية والمهيمنة، فإنك تتحول في نهاية الأمر إلى جنرال آخر من الجنرالات «الآلهة» الذين يبيدون أحياء بكاملها ويحاصرون الملايين من الفلسطينيين بجرة قلم. ومن الواضح أنك لم تجرب المنع من السفر والحركة ولم تجرب الجوع أو انقطاع الماء أو الكهرباء، ولم تجرب تجاوز احد الحواجز العسكرية التي يتواجد عليها جنود من «شعب الله المختار» وكيف يطاردون شعباً لم يختره الله «حسب قولكم»، فيمنعون النساء الحوامل من الوصول إلى المستشفيات، فيلدن هناك في العراء، ليموت الجنين وتتفتح مليون زهرة غل وكراهية.

واضح أنك لا تعرف ذلك ولا تريد أن تعرف ذلك، لا تريد أن تعرف أنكم تمارسون احتلالاً كريهاً وبشعاً إلى درجة أن الفلسطيني أينما كان هو هدف آلة القتل لديكم، وأنكم مسلحون بأجهزة إعلامية وقضائية وأمنية تحيلون فيها حياة الفلسطيني إلى جحيم لا يطاق، حياة مرتبطة برجل المخابرات الإسرائيلي الذي يتدخل في شهادة الميلاد إلى كمية الماء التي يجب أن يشربها الفلسطيني، وواضح أنك لا تعرف ماذا يعني الاستيطان ولا الجدار الفاصل، وكيف أن حركتك الصهيونية تعيد حكاية البيشوف من جديد، وأنها تسعى فعلاً إلى فرض واقع جديد في فلسطين التاريخية لا يكون فيها إلا شعب واحد. إنك خير من يعرف أن حركتك الصهيونية مدعومة بالفكر الحاخامي التلمودي استطاعت أن تحيد القانون الدولي في بعض الأحيان وأن تستغله في أحيان اخرى وتضرب به بعرض الحائط في أحيان ثالثة. ان حساسيتك الاخلاقية الاستعلائية والمهيمنة ترى فينا– في النهاية – نوعاً آخر من البشر لا يفهم سوى لغة القوة، ولهذا تبرر لحكومتك وحركتك أن تقتل الفلسطيني وتحاصره وتمنعه من الحركة وتحجر عليه المطالبة بحقه في الحرية التي هي هبة من الله تماماً كالتوراة. وعندما تعتمد في قولك هذا على ان الفلسطينيين لا يفهمون سوى القوة، فإن ذلك يعني أن تبريرك الوحيد لعلاقتك بهذه الأرض هو القوة ومن ثم المزيد من القوة حتى تنتحر.

ومن فائض القول أيها المحترم أننا بشر مثلكم، نعمل ونكد من أجل أطفالنا ونغازل نساءنا ونكتب الأشعار ونبني البيوت ودمنا أحمر تماماً مثل دمكم، ونبكي ونصلي ولا نكره الشعوب الأخرى، ثقافتنا ثقافة فرسان لا تخشى شيئاً ولا تخاف من شيء، ونظرة واحدة إلى تاريخنا العريق ستعرف أن الثقافة العربية الإسلامية استوعبت اليهود والنصارى والمجوس وصهرت ذلك في ثقافة عريضة غنية متنوعة، ان ثقافتنا هي التي تقول أن من أذى يهودياً أو نصرانياً فقد أذى النبي محمد، ونقول هذا الكلام وسيقرأه المسلمون المعتدلون والمتشددون ومن ثم لن يعترضوا وهذا ما نضمنه لك. وعندما تقول اننا لا نفهم سوى القوة، فهذا يعني بلغة أخرى، أنك تعتقد أننا لسنا بشراً، ولا نريد أن نتهمك بأنك من المؤمنين بالفكر الحاخامي التلمودي، فأنت علماني، وقد اعترفت بالفلسطيني بشكل ما في روايتك «العاشق» ولكنه اعترافٌ منقوص مشبوه. أنت باعتمادك على القوة لا تجد تبريراً غيرها، أما نحن فإننا لا نحتاج إلى تبرير، فالمرء لا يبرر علاقته بأمه، ولا يبحث عن وثائق تؤكد له هذه العلاقة، يكفي رائحتها لنعرف أنها أمنا.

وإذا كانت حساسيتك الأخلاقية التي ـ بالمناسبة – نستثقلها جداً لأننا لا نريد أن تفحص أخلاقيتك بنا، أو أن تجرب انسانيتك من خلالنا، نقول، اذا كانت حساسيتك الأخلاقية هذه قد انكشف أمرها وظهر قصدها الحقيقي في ان تكون داعمة ورديفة للتيار الصهيوني المركزي الذي رأى في علاقته بهذه البلاد علاقة انتهاك وامتلاك ولا تكتمل إلا بطرد أصحابها منها وسلبهم بيوتهم وحقولهم وارتكاب أكثر من مئة مذبحة بحقهم، فإننا نؤكد لك بهذا الصدد أن هذه الرؤية وبعد ستين عاماً من استمرارها لم تؤد الا إلى مزيد من الكراهية والقتل، ولن تؤدي إلى سلام إطلاقا.

وحتى تعيش في هذه المنطقة، أنت وحركتك وكيانك، عليك أن تدفع ثمن هذا العيش.. وهو ثمن لا يتمثل ولا يتجسد باستعمال قوتك أو حتى جزرتك، فنحن لسنا كلاب بافلوف ولا نوعاً آخر من البشر، نحن مجرد بشر أهل هذه البلاد نفهم لغات أخرى مختلفة.. عليك أنت أن تتعلمها.

---

* روائي من فلسطين

فُقدانُ البراءة

جوان ماكنلِي
ترجمة: سعدي يوسف

قصيدة من نمط « الفيلانيلا » مهداةٌ إلى غزّة
A Villanelle for Gaza

يا أطفالَ النورِ المســروق
والأملِ والحقِّ المدفونَين
أين ستضعونَ تيجانَكُم هذه الليلةَ؟

بلّوراتٌ ترقص على خدودٍ معَفّرةٍ
كاشفةً مساربَ الدمعِ المتآكلةَ
يا أطفالَ النورِ المسروق .

جرحى، مدَوَّخين، بالفوضى التي لا تنقطع
وبلا أفرشــةٍ
أين ستضعون تيجانَكم هذه الليلةَ؟

يا مَن أعماكُمْ دَفْقُ الدم الحارق
وأرهقكُمْ خَفْقُ القلبِ الكَتيم
يا أطفالَ النورِ المســروق .

غياضُ الزيتونِ هي الآن تحت الركام
والبيوتُ المتواضعةُ لم تَعُدْ قائمةً
أين ستضعون تيجانَكم هذه الليلةَ؟

الآن، صارت مملكتُكُم حماةً
وبراءتُكم قُصِفَتْ لتكون ظلاماً .
يا أطفالَ النورِ المســروقِ الضائعين
أين ستضعون تيجانَكم هذه الليلةَ؟

لندن 31.01.2009

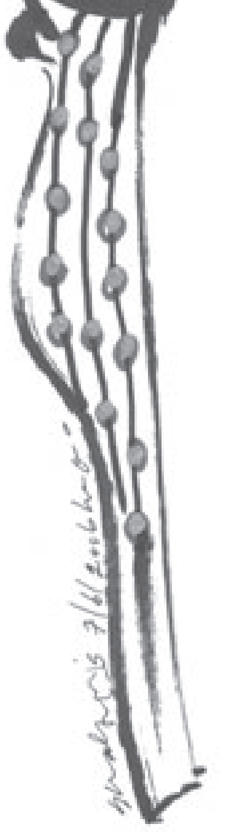

في سهرة شعرية وغنائية تضامنية بقاعة «الاطلس» التاريخية:

غزة تستلهم مقاومة شهداء باب الواد

الجزائر ـ

من بوعلام رمضاني:

اذا كنت قد فشلت في معرفة ما اذا كانت وزيرة الثقافة خليدة تومي هي التي كان لها شرف الجلوس في مكان شي غيفارا الثائر الذي حضر مسرحية «شعب الليل» للمسرحي الراحل الكبير ولد عبد الرحمان كاكي (عن نضال وصمود الشعب الجزائري) في قاعة الاطلس عام 1963 رفقة الزعيم احمد بن بلة ام عزالدين ميهوبي وزير الاتصال الجديد والشاعر الدائم وامين عام اتحاد الجزائريين والمدير العام للاذاعة سابقا (انتظر الحديث الذي اجريناه معه) ...فانني لم افشل في التقاط وتأويل رمزية حفل فني وادبي تضامني لم يكن هدفه الاول والاخير الارتفاع الى مستوى الاداء النوعي تنظيما وبرمجة. وكما هو الحال في الظروف العصيبة والملحة فان الدور الذي كان منتظرا من الجهة المنظمة قد تحقق ليس بسهرها الخاص وجديتها ودفاعها عن الشعب الفلسطيني فحسب بل بمشاركة جمهور لم يكن عاديا في تجاوبه مع شعراء ومطربي السهرة بغض النظر عن تفاوت ادائهم وتنفير بعضهم لجزء كبير منه لم يكن يتوقع رداءة موصوفة يمكن قبولها باسم التضامن مع شعبنا الابي في غزة الصامدة رغم حقد الاعداء وبعض الاشقاء الاشقياء والاعدقاء المنافقين تحت وطأة الخضوع للاقوى المشارك والمزكي للظلم على شعب اعزل يتغذى بالايمان والشهادة والتضحيات الجسام كما فعل الجزائريون والفيتناميون قبله.

بدعوة من مركز الثقافة والاعلام الذي كان دائما وفيا لالتزامه الوطني والقومي وخاصة حيال نضال الشعب الفلسطيني بقيادة الاخضر بن تركي وبالتعاون مع الاذاعة والتلفزيون وصحيفة الشروق ...عاشت قاعة الاطلس التاريخية الواقعة في قلب حي باب الواد المجاهد ليلة الاربعاء الماضي ساعات كشفت عن حقيقة الضمير الجمعي الجزائري الرافض منطق الرضوخ للامر الواقع المرادف للاستسلام بدعوى الواقعية السياسية. طلبة الجامعات الذين انقسموا في كيفية تجاوبهم مع رداءة لا يبررها مبدأ التضامن مع اهلنا في غزة والوجوه الثقافية والادبية والفنية الجزائرية والعربية المبرمجة وغير المبرمجة (احلام مستغانمي ..فردوس عبد الحميد ...عباس نوري..بوزيد حرزالله..بوبكر زمال..عبدو درياسة..محمد بوليفة فؤاد ومان ..لطفي دوبل كانو..جمال بخيت.. سعاد بوعلي..جمال سعداوي..جاهدة وهبة..براعم الكورال) لم تتردد لحظة واحدة طيلة اربع ساعات في الدعوة الى الصمود في وجه اسرائيل الغاصبة والمعتدية الجبانة والى عدم المهادنة باسم ديبلوماسية غير مجدية مع عدو لا يعرف الا قوة المقاومة (التي تنعتها بالارهاب) كما قالت النجمة القومية فردوس عبد الحميد على لسان الزعيم الراحل جمال عبد الناصر مدعومة من ابن جلدتها الشاعر الشعبي جمال بخيت والذي وجد صعوبة كبيرة مثله مثل فردوس في التعبير عن موقف مصر الحقيقي بالشعر وبالكلام العادي على السواء، وكان وراء تعطيل الشرح النضالي لكل من فردوس وبخيت طلبة راحوا يصرخون «مبارك يا جبان ..يا بياع المريكان»وفقد اخرون معنى الاحترام في ابسط صوره حيمنا بالغوا في التنديد بالموقف المصري الرسمي باعلائهم ايقاع «مبارك حمار»ملحنا من دون سابق تكوين فني.

شعريا ابدع بوزيد حرزالله شكلا ومضمونا حينما وظف فكرة الجنوب المناضل في لبنان وغزة تماما كما افلح الشاعر جمال بخيت في اثارة مشاعر الجمهور الطلابي بالقاء شاعري ومسرحي رمزي غطى من خلاله ركح قاعة الاطلس وذكر الحضور بانه فعلا من خريجي معطف الشاعر الكبير احمد فؤاد نجم. شعريا دائما ...لم يتمالك الشاعر الشعبي الاخر جمال سعداوي نفسه ونسي طبيعة المقام الى الحد الذي اثبت انه ابعد ما يكون عن الشعر واقرب الى مفهوم التهريج الامر الذي لم يكن سلبيا تماما وبفضله ضحك الجميع بعد ان رفع المفعول به باسم التضامن مع ابناء غزة وبلغت حماسته الذروة المطلقة بعد ان تجاوز الوقت المحدد له على مرأى الاخضر بن تركي الذي تسمر واقفا وعاجزا عن التدخل تحت وطأة تخلقه المعروف به ولان خطابة سعداوي كانت اقوى بكثير من كلام المنشطة الوديعة ...فقد استمرت التراجيكوميديا المذكورة حتى لحظة ركوع الشاعر لجمهور روح على نفسه في سهرة لم تنظم من اجل التسلية.

غنائيا ...لم يكن المطرب محمد بوليفة في مستوى صورته الفنية المعهودة والاغنية النضالية التي اداها تكريما لفلسطينيي الصمود والاباء كانت اقرب الى السرد منه الى الاداء الغنائي وكان واضحا بان رائحة الاستعجال كانت تفوح بقوة لافتة. سعاد بوعلي صاحبة الحنجرة المتميزة تألقت كعادتها، وظهورها بحلة غنائية كلاسيكية لغويا وموسيقيا انسجم مع عروبة فلسطين وغزة والعالم العربي والاسلامي بوجه عام وتستحق اغنيتها ان تسجل في البوم خاص يجمع كل المطربين العرب الذين قرروا الاضراب عن اداء الحب والهيام والتفرغ لشحن همم المقاومين ورفع المعنويات في زمن الاحباط العربي العام.

الشاب فؤاد ومان تمكن من اثارة تجاوب القاعة التي امتلأت بطلاب الجامعات بأغنية ايقاعية نضالية (احنا اصحاب الدار) لكنه تحول الى ذكرى باهتة مثل زملائه الذين سبقوه الى ركح قاعة الاطلس بعد ان ظهر مغني الراب الشهير لطفي دوبل كانو (المدفع المزدوج) الناطق باسم الشباب المهمش والمعبر عن توابل الحرمان الاجتماعي والنفسي والسياسي. لطفي الذي ظهر بسروال جينز وبكسكيت (قبعة شبانية) الهب قاعة الاطلس بايقاع اغنية «غزة» السريع واللصيق بطبيعة اغنية الراب وحقق لطفي بأغنيته المدفعية المفاجأة غير المنتظرة وخلافا للنظرة الدونية المرادفة للاحتقار التي تترك الكثير من المثقفين يتعالون على نوعيته الغنائية فقد التحم مع الحاضرين و فجر مشاعر التعاطف في اوساط الشبان الجامعيين ولعل قدرته على اشراك الجميع في اداء اغنيته وتكرار كوبليه «غزة...غزة... غزة ...عشرات المرات حقيقة تبقى ماثلة ومتجذرة في عقول وقلوب الضيوف العرب غير المتعودين على اغنيته الصالحة ايضا لتجديد الاداء الفني العربي والقومي الذي يمكن توظيفه نضاليا تماما كما توظف اغاني مارسيل خليفة والشيخ امام وشخصيا اعتقد بان الروائية الكبيرة احلام مستغانمي والممثلة الشهيرة فردوس عبد الحميد والنجم الشامي عباس نوري والشاعر الشعبي جمال بخيت قد تمتعوا بلطفي وهتفوا معه سويا اسم غزة ...غزة ...غزة... فقيد الشعر العربي وذاكرة كفاح الشعب الفلسطيني محمود درويش حضر هو الاخر من خلال الشاشات التي ثبتت على طرفي خشبة قاعة الاطلس واستبق بحسه النضالي حتمية المواجهة بكل الاشكال الممكنة حينما دعا المقاوم الحي الصامد الى التقاط الشهيد القتيل لضرب العدو.

المطربة اللبنانية جاهدة وهبة التي لم اتشرف بالتمتع بصوتها بعد مغادرتي القاعة لاسباب شخصية قاهرة ..اتصور انها كانت في مستوى ادائها الذي وقفت عنده اثناء البروفات وباستضافتها يكون بن تركي مدير مركز الثقافة والاعلام قد كرس صوتا فنيا عربيا متميزا في الجزائر التي لا يمكن ان تنسى فلسطين المظلومة وغير الظالمة في كل الحالات كما كانت هي قبل ان تنتصر على عدو غاشم لم يفهم تكنولوجيا الشهادة.